المتغير الثقافي ..! حضارة تقف على رأسها

سعيد كاظم النور

(١)

لقد حصل تغيير كبير في المواقع والمسؤليات والصلاحيات الثقافية .. وهذا التغيير وان تطلب حدوثه مدة زمنية طويلة ، لأنه جرى بشكل تدريجي ومتأن وبطيء، غير أن نتائجه وقفت في آخر المطاف بشكل ثابت ومرتكز وموزع على مساحات مترامية من العالم وأصبحنا أمام واقع ثقافي جديد وتشكلات ثقافية متعددة ، لها توجهات وتقاليد وشواخص وفنون في الاستدراج والإنتاج وكذلك في تهيئة الآخرين للتلقي العشوائي . وعندما نتمهل قليلاً أمام هذه الوقائع والتشكلات لغرض إعادة فحصها واختبارها سوف نتمكن من رؤية ميزة مهمة وصفة بارزة تتميز وتتصف بها ، وهي تسارعها في التأسيس والتكوين والتطور وكذلك ترابطها المعقد ضمن شبكة متلاطمة ومتداخلة ومعقدة من إيصال المعلومات وتسلم البدائل وإنتاج الثيمات وايضاً تحقيق الأرباح .. هذا من جهة ، ومن جهة أخرى سرعة تلاشيها واختفائها ونسيانها لتحل محلها تشكلات جديدة تسير بنفس مسار سابقتها ولكن بتقنيات وتصاميم وتراكيب أخرى . وكما يبدو فأن الزمن المعتاد أصبح خجولاً ومتعباً وغير قادر على اللحاق بهذا التراكم الهائل من إنتاج الثقافات الحديثة والمثقفين الجدد ، وبهذه السرعة من احتلال الأمكنة وتشكيل المواقع وصناعة الأسماء (الثقافية) والتلاوة العصرية للأكليشيهات المتشابهة والثابتة والبادئات والخاتمات التي يبتدئ ويختتم بها مثقفو العصر كتاباتهم وبرامجهم ورسائلهم الثقافية .

فالثقافة السائدة اليوم هي ثقافة متلابسة ومكونة من كتل ثقافية مصنعة وموجهة من قبل نظام عالمي واحد هدفه ابتلاع وهضم مجمل الثقافات المحلية الواردة إليه عبر وسائل الاتصال الحديثة التي يؤسسها ويرعاها ويتحكم بها وبواسطة مجاميع هائلة من الأوعية الناقلة من المتعلمين وأصحاب الشهادات والذين يعملون بأجور جيدة مقابل قيامهم بالاستطلاع والتقرب من التقاليد والصور الكائنة في ذاكرة المجتمعات المحلية والظاهرة على شكل نتاجات أولية يمكن ملاحظتها في السلوكيات السائدة وفي الفنون المعبرة عن المشترك الإنساني والحضاري الخاص بتلك المجتمعات ليتم بعد ذلك إعادة إنتاج مجمل هذه المدخلات بلغة جديدة وبثقافة كونية واحدة وبرؤية عالمية حديثة لها قراءاتها وتفسيراتها وتعريفاتها لكل الأحداث الجارية في العالم وبثها عبر وسائل الاتصال الحديثة والسريعة والمترابطة بشبكة معقدة ومتقدمة علمياً ، تتم رعايتها كما ذكرنا من قبل الجهة المؤسسة لتلك القيم والساهرة على إستمرار عملها ، ناهيك بإضافة مدخلات ومخرجات جديدة ، أي إبتلاع ثقافات محلية أخرى وإعادة إنتاجها بثقافة عالمية تساهم في تحقيق وإدامة) إنتصاراتها) المعرفية ، وتبعاً لذلك وعلى مدى زمني غير محدد سوف يتم إنتاج الجيل الجديد من المثقفين (غير المشاكسين) والمصنفين ضمن دوائرهم التخصصية التي تعينهم على البقاء في مراكزهم المدة المطلوبة.

(٢)

وقبل أن نُكمل إطلاعنا على كافة أحداث ومرتكزات ونتائج هذه التغييرات الجارية ، تجدر الإشارة مرة أخرى ولغرض التذكير إلى التمييز بين الثقافة والمثقف والتعرف عليهما جيداً ، فالثقافة كمفهوم ناتج عن معطيات وتضادات وتصارعات وإنتاج موضوعات وكذلك عن خيالات وماديات تكتسب عبر مراحل زمنية تطورية صفة التجانس والإنسجام والترابط مع الكون وآلية حركاته ، نراها تتباين وتتنوع في أصولها ومواردها ومصادرها فهي تمور بين أوساط واسعة من الأصول والانتماءات والتوجهات والأحداث التي تخلق منها كياناً متعلقاً ومرتبطاً بالبيئة التي نشأ ضمنها ، ولذلك فنحن نرى التأريخ يحمل لنا ثقافات كثيرة جداً تختلف فيما بينها إختلافات جذرية تصل إلى حد التصادمات والصراعات المُزمنة ، وهذا يعود كما ذكرنا إلى الوسط الذي تتكون خلاله كل ثقافة .

أما المثقف وهو العامل النشيط والبرهان الدائم المتواجد داخل كل هذه التحركات المنتظمة في الأطر التي أشرنا اليها ، فنراه يمثل وحدة ودلالة مشتركة من السلوكيات والهموم التي تميزه عن غيره وترتبطه بمهمة إنتاج الوعي وصناعة الفكر وبلورة وتحديد ملامح وتصورات وعقائد يسعى جاهداً ليجد لها حضوراً ومنبتاً ومنشأ في مجتمعه ، أي إنه يحمل صفات متشابهة بغض النظر عن المجتمع والأساس والبيئة التي يمثلها وينطلق منها.

إن التغيير الذي جرى على صياغة الرواية الثقافية تعدى حدود المصادر الفرعية لمنتجات الثقافة حتى وصل إلى بنائها الكلي فأصبحت اليوم تمثل كتلة عالمية مصنعة بواسطة نظام كوني ، آسر ومبتلع لمجمل الثقافات المحلية ، ومحرك للكثير من التلاقيات والتجمهرات التي تعنى بها ، وتسعى بنفس الوقت لكي تتحول إلى زعامة معرفية جديدة ومتسلطة أو بدلة بنياشين براقة يرتديها ذوو الاختصاصات وأصحاب الخبرات التقنية الحديثة والعاملون (الجيدون) في حقولهم العلمية والفنية والإدارية وأصحاب الشهادات والذين على شاكلتهم ، فتغدو الثقافة كأنها حضارة تقف على رأسها ، وتشتمل على صور لجمهور غير متجانس من المتخصصين الذين يصنفون بموجب إختصاصاتهم إلى أنواع مزودة بقوائم نموذجية من الإصطلاحات والبناءات اللغوية المرتبطة بنموذجهم الثقافي . وبهذه الطريقة يتم لفظ هذه الأصناف إلى المجتمع بصورة (مثقف العصر) العامل ضمن منظومة الثقافة العصرية المنتجة عالمياً والحريص على الإنعزال والتفرغ لذاته .

لقد تزامنت كل هذه التغيرات والإنقلابات الجارية على الجسد المعرفي وعلى العقل البشري مع وجود قناعة متنامية ومتصاعدة لدى المشتغلين في الحقول الثقافية والعلمية بهذه الإرتدادات والتراجعات والإنعكاسات ما أدى إلى وقوع إنشطار كبير في عقل الثقافة وصيرورتها حتى غدت عبارة عن شظايا شبه معرفية فاقدة بالتدريج لمجمل ركائزها ، وهي بالتأكيد من مصادرها الأساسية ،ومستعيضة عنها بمدخلات إما أن تكون إيهامية وغير واقعية وخالية من مكتنزات إرثها الإجتماعي، أو أنها أطروحات تغلب عليها اللغة الإصطلاحية والجدل المفضي إلى تزاحم عدة أسماء لمصطلح واحد.

(٣)

وتبعاً لذلك سيتم حتماً حصر الشكل الجديد من المثقفين وتحديدهم بالحدود الممكنة التي تسمح لهم بالتحرك والإشتغال وفق تلك الأطر المشار إليها فقط ، وتوزيعهم على دوائر معرفة عالمياً تتعامل بموجب المعطيات والإمكانات والترابطات الثقافية (المعاصرة) والتي ستلزمنا في نهاية الأمر بالتقيد الذاتي بتوصيات الثقافة (المعاصرة) المحدودة و (المنمقة) و (اللامعة).. وسنرى المثقف الجديد بهويات لم نألفها كثيراً من قبل ، فهو إما أن يكون أستاذاً جامعياً يتحرك ضمن حدود قاعة الدرس ويكرر محاضراته بنفس الأقاويل الأكاديمية والقانونية السائدة والثابتة منذ سنين.. أو أننا سنفاجئ (بمثقف) من نوع آخر.. وهو نوع المتصفح الدائم على الشبكة الدولية والقادر على مواصلة البحث عن المواقع الجديدة والعثور على ضالته (المعرفية) وتلقيها بالصورة التي تطرح بها ، وحسب هذا النوع فأن هذه الشبكة تكاد تكون مصدر وعيه الوحيد ودليل معرفته الرئيسي وكذلك محل سكونه وانفعالاته و (إبداعه) وهناك نمط آخر من الإفرازات الحديثة والذين يمثلون صورة أخرى للمثقف الجديد ونقصد بهم أصحاب ثقافة (التحليل والخبرة) .. وهؤلاء نراهم حاضرين على الفضائيات ، ويمكن تشبيههم بالمقاولين الجاهزين لتزويد تلك القنوات الإعلامية (بتحليلاتهم) و (خبرتهم) لقاء أجور محددة يعتاشون عليها.. وهم يصنفون طبقاً للحكايات التي يروونها.. فنرى مثلاً الخبير والمحلل السياسي أو العسكري أو القانوني أو البايولوجي أو اللغوي ...الخ . ويشتد ظهور هذا الصنف مع موسم كثرة التأزمات والتوترات الدولية والتي تحدث في مناطق من العالم غير مستقرة في الغالب ، أو مع شيوع حالات وأحداث جديدة تهم وتشغل الرأي العام ، أما ما تبقى من الذين لم يحالفهم الرأي السديد ولا التحليل العلمي ولا الحضور الإجتماعي فحتماً سيتشكل منهم فريق من بعض الكَتَبَة المنعزلين ، والخضوعيين.. وهم حبيسي إجترار الحذلقات اللفظية الجاهزة ، حيث تتصف كتاباتهم كونها وعاء للأنقطاعات والتداعيات والتهافت المستمر والميوعة الثيمية التي تدل على ضعف التجربة وخواء الذاكرة وفقرها الإجتماعي .

كل هذا يعني إحتضار الثقافة ...! ولهذا فإن الصعوبة تكمن حالياً في إيجاد طريق واحد ..قادر على خلق التوازنات ، وترتيب مسار إبداعي و متجدد للمعرفة بمجملها يمكنها من إعادة إنتاج نفسها كحضور إجتماعي وسلوك يومي وتداول إنساني تلقائي ،على المثقف الحقيقي أن يقتحم تلك الصعوبة بديناميكية ذاته ، وتوجيهها نحو حيوات المجتمع.

زاد المسافر

حامد الأوسي

زاد المسافر

لهفته..للوصول

الى مابغى

وربما

فرحته..بالابتعاد

عن الذي ساكنه

وربما

اضطراره وحزنه

لانه ارتحل

❖ ❖ ❖

زاد المسافر

شوقه للقادم المجهول

إذ هو يقدم اليه

يكون في روعه انه

ربما انتظر بشوق

ربما انتظر..بابتعاد

ربما انتظر

ربما انتظر

عبد الله الخياط .. من ظرفاء بغداد

حارث النعيمي

من هو؟

هو الشيخ عبد الله الخياط ابن جاسم قمن عشيرة القره غول.. كان يسكن محلة السوق الجديد في جانب الكرخ..وكان ظريفاً من ظرفاء بغداد المعدودين في التاريخ.. الا ان ظرفه كان من طبعه.. وبذلك اشتهر اكثر من غيره بين مختلف طبقات الناس.. فهو بلبل المجالس في جانبي الكرخ والرصافة.. وهو نزهة المحافل بين ارباب العلم والفضل، يذهب عنك الحزن ان كنت محزوناً ويذكرك بعهود الخير التي مضت في عصور الاسلام الزاهرة ايام كانت الخلافة العباسية ببغداد، وخصوصاً في عهد هارون الرشيد.

ان الشيخ عبد الله الخياط كان يمتهن خياطة الملابس..وكان من ملازمي مجالس الالوسيين والسويديين وآل الشواف وغيرهم.. وله صحبة بتلك المجالس العلمية، وكان له مجلس في داره يختلف اليه العلماء والفقهاء.

وكان هذا الاديب الظريف رقيق الحال جداً، ولكنه كان قانعاً لايشكو واهتم به احد المعجبين في اواخر حياته.. فعرض قصته على والي بغداد فاصدر الوالي امره بتعيين عبد الله بوظيفة مكتوبجي في متسلمية البصرة براتب شهري قدره عشر ليرات..وفوجئ عبد الله الخياط بالخبر فلم يفرح كما كان منتظراً..وبدا يستعد للسفر الى البصرة وهو واجم..وجمع اصحابه قبل سفره بايام وقال لهم:

. اني جمعتكم لاودعكم فاني لاادري اني عائد اليكم من سفري هذا:

. فقالوا:

. ويحك ما هذا التشاؤم؟

. انا اعرف بنفسي منكم. واعلم أن رزقي معين محدود.. وقد عشت طول عمري فقيراً لا اجد غير القوت الضروري الذي يكفي لسد رمقي..وجاء هذا التعيين المفاجئ بهذا الراتب..فقلب حياتي رأساً على عقب.

عبد الله الخياط وايوب

كان لآل اليتيم في جانب الكرخ مجلس يدعى بمجلس ايوب اليتيم..

وهو مجلس لايرتاده الا اهل الشغب ومن اتخذ الاستهزاء والشتم والسخرية بالناس حرفة ومهنة له.. من ذلك ان هذا الرجل (ايوب اليتيم) كان يختص بمشرب خاص للتتن يسمى(الشطب) .. لايمكن ان تناله ايدي بشر غيره.

فطرق ذلك سمع الظريف عبد الله الخياط..فعقد الرهان مع احد اصدقائه ان تمكن من استحصال مشرب ايوب اليتيم؟

فاتجه عبد الله الى هذا المجلس، وبعد السلام والكلام وتجاذب اطراف الحديث والقاء النكتة تلو النكتة..اخذ عبد الله الخياط يسب ويشتم العائلات البغدادية القديمة مجاراة لما تعود عليه ايوب اليتيم حتى طاب لايوب الحديث.. فناوله مشربه الخاص رضاء بما صنع من التكلم على تلك العائلات.. ثم اخذ ايوب يعين عبد الله الخياط على شتم الناس بيتا بعد بيت ورجلا بعد آخر، حتى جاء الدور الى البيت الفلاني، فالتفت اليه عبد الله الخياط وبيده مشرب ايوب قائلا له بعصبية:

. الى هذا الحد وصلت يا ايوب؟

عبد الله الخياط في سنة الطاعون

ببغداد في احدى سنين الطاعون المريعة انهزم عبد الله الخياط وشمع الخيط الى الصليخ هروبا من الاصابة وسكن هنالك مدة طويلة لان الصليخ كانت بعيدة عن بغداد بعد الشام الان عنها لقلة الوسائط وفقدان الامان.. ثم شاع في الصليخ ان وطأة المرض قد خفت وزال الخطر عن بغداد..فقرر الخياط ان يرجع الى بيته وركب الدابة وبينما هو سائر في الطريق صادفه احد معارفه قادما من بغداد فسأله:

. يابه ؟ شكو ماكو، احجيلنه ، اخبار حوادث؟

. سلامتك ابو نجم..كل شيء على كيفك.

. طيب؟ اخبار الطاعون شلون؟

الله الحالة هادئة ، اكو شوية تك..توك.

اما عبد الله الخياط فقد ادار عنان دابته والهب عجزها بالصوت متوجها الى الصليخ ثانية.. فأوقفه قائلاً:

. على خير مولانا ابو نجم؟ اشو انهزمت.

. هذا موشغلك، بلكي انت (التك) واني الـ (توك).

عبد الله الخياط واكع من السطح

يقال ان المرحوم عبد الله الخياط سقط ذات يوم من السطح الى فناء الدار فانكسرت رجله ولازم الفراش عدة ايام.. وقد نادى زوجته وقال لها:

اياك ان تقبلي احدا من اصدقائي لزيارتي الا بعد ان تتأكدي منه انه سبق له السقوط من السطح الى الحوش؟

. ليس يارجال شنو السبب؟

. هذا موشغلج اعملي مثل ما اوصيج.

وبعد ان شاع خبر سقوط الخياط من السطح توارد اصدقاؤه ومحبوه الى داره للسؤال عن صحته:

. طاق طاق

. منو بالباب . سوو درب انريد انخش نسأل عن صحة الاوسطة عبد الله.

. يابه انت قبل هذا واكع من السطح؟

. لاخير..

. روح الله وياك الأوسطة نايم ما اكدر اوعيه.

. وهكذا كلما اراد احد الدخول والاستفسار عن صحة المريض تمنعه زوجته الى ان جاء صديق له من سكان محلة قنبر علي ودق الباب:

. طاق طاق طاق

. منو انت

احمد حبزبز ، الاوسطة كاعد. اريد اشوفه.

. جنابك كبل هذا واكع من السطح؟

. نعم

. تفضل ادخل

قالت ذلك وفتحت له الباب ودخل. فاكتفى بالسلام عليه والاستفسار عن صحته ثم لم يلبث الا قليلا وخرج منه مودعا بقوله:

. ماعندك غير العافية ابو نجم.

من المحرر

كلام للمبدعين الشباب لندرس تجارب الاخرين ونكون

المحرر

اين يقف المبدع من ابداعه.. من مسؤوليته الانسانية تجاه ماينتجه؟ ماذا عن الفنان في شروط ابداعه؟ عن الفنان الذي يضع كلماته بوعيه وقدرته على التفوق على ذاته.

عبر تاريخ الابداع والكتابة، كان كل الكتاب العظام ومنهم الجاحظ الموسوعي الذي مات وهو يكتب ويقرأ بعد ان سقطت عليه اكداس كتب ورفوف مكتبته، واستذكاراً لأرسطو الذي تجرع السم وهو يدافع عن منهجه الفلسفي وانتقالا الى هيرمان هسه المتنوع الاداء وتوالي الانتاج بدءاً من لعبة الكريات الزجاجية، رواية الحيرة بين الانسجام مع مجتمع النمط والتمرد عليه، وانطلاقاً الى (نولب)، انسانه الذي سبق زوربا كازنتزاكيس في اطروحاته عن التمرد على مجتمع اوربي متعب.

ان الحدث الابداعي مبثوث في شارع المجتمع، في القرى والدساكر وفي احلام الانسان وقد كتبت الاف القصص ومئات الروايات سعياً وراء رسم الواقع وصولاً الى انسان ومجتمع نموذجين ، كتبت عن العاطفة باشكالها وعن ثلاثي العلاقة وعن الظلم الاجتماعي والسلطوي وعن الجوع والملل والنبل والقسوة. ان قصة فيركور صمت البحر، لها افضلية الحفاظ على الحس الانساني المقاوم النابض، بالحياة بل ان عمدة شتاينبك في "افول القمر" اكثر قدرة على المقاومة الجلية الواضحة، واذا كان القرن التاسع عشر قرن التحولات الكبرى في اوربا وظهور اعمال دستويفسكي وتورجنيف بحدودها الانسانية الكبرى واحلامها في حياة افضل فان جيمس جويس قد قاتل الجوع لسنوات وهو يتنقل بين فرنسا وايطاليا ويركب سيارات الاجرة من مكان نومه الى بيوت التلاميذ الذين يدرسهم اللغة لكي يحصل على قوت يومه وهو يكتب يقظة فيذخان ، ورائعته يولسيز التي حاربتها الطبقات العليا لقدرتها الصادقة للحقيقة ولقوة ادائها المذهلة.

جاع جمس جوسي سنوات حتى شهد انتاجه يطبع وعاش وليم سدني كارتر الشهير بـ او .هنري في السجن سنوات قبل ان يكتب لنا هدية عيد الميلاد وسائر روائعه في القصة القصيرة.

واذا كان كل هذا قد ذهب وظلت اثاره واضحة عبر اعادة الطبع المستمرة لهذه الاعمال فانه قد دخل في مرحلة تسويق اوربية محسوبة تحاول دوماً طرح افكارها عبر اعادة كشف الذات المسحوقة والفردية وتسويق كتب الجنس والجريمة، لقد صنعوا لنا ماريو بوزو مؤلف "العراب" وقدموه كسندويج لذيذ الطعم ومتبلاً لكن تلك الافادية الحريفة لم تستطع ان تغطي لنا رائحة نتانة الشريحة الاجتماعية التي صورها لنا..قبل ذلك كانوا قد صنعوا فرانسوا ساغان في الخمسينيات وقدموها كصبية مراهقة كتبت روايتها القصيرة "مرحبا ايها الحزن" التي طبعت بالملايين لتصور حياة الملالة لدى طبقة بعينها وتمضي السنوات وتنصرف الى كلابها ووارادات كتبها ثم تسرق افكار وتفاصيل كانت اخر عام ١٩٨١ في روايتها "قصر في السويد" لتحاكم وتدان، وهنا نسأل: من صنع لنا ساغان وغلفها بالسيلوفين ثم مزق الغلاف عنها وقد غدت عجوزاً؟ ان القوى الرأسمالية فعلت ذلك وقد حطمت حياة ساغان الرخيصة بعد أن لم تعد تنفعها وفي عالم مثل هذا يتحول فيه الكاتب بقدرة قادر الى مجرد نفاية او يلتزم بالمسطرة التأليفية التي تقودها شركات النشر ينبغي لنا ان نحتاط مما يترجم لنا ويغلف تغليفاً جيداً داعياً الى الاحتجاج على كل شيء وضياع التوازن بين العدل والظلم و الحقيقة والأكاذيب وتسويق ثقافة العولمة التي هي في حقيقة الامر ثقافة قوة واحدة تحاول اثبات نازية جديدة هي النازية الامريكية قال بها، طاهر الروائي المصري في مداخلة له جرت قبل فترة في دار الاوبرا المصرية تحت عنوان الادب والفن في الفية جديدة ان الثقافة لاتتغير اطلاقاً مع تعليب اوراق النتيجة وان هناك عوامل موضوعية هي التي تؤدي الى التغيير فالثقافة في حقيقتها استجابة للتحديات التي يواجهها أي مجتمع ولكي نستقرئ المستقبل علينا ان نفهم اولا: التحديات التي يواجهها مع مطلع القرن الجديد والتي يمكن ان تفرض نفسها على الكتاب والمبدعين لكي يقدموا اجابات للوضع الذي يعيشونه.. وقال متحدثاً عن مصر للاسف الشديد فأننا على عكس ما كنا منذ بدايات القرن العشرين وحتى الستينيات منه لسنا على وعي كامل بالمؤامرة الموجهة لتقويض ثقافتنا مما جعل هذه المؤامرة تحقق قدراً كبيراً من النجاح على مدى العقدين السابقين لان ثقافتنا تخلفت في احيان كثيرة عن فكرة الاستجابة التي يفرضها الواقع وغرقت في التجارب الذاتية والشكلية وانتقد بها طاهر انصراف الكثير من الروائيين الى تجارب شكلية اخرى.

ولاشك ان بهاء طاهر قد رفع الراية السوداء تجاه مايحدث في ميدان الادب ولكنه لم يكن يفكر بجدوى الانفتاح على التجارب الابداعية الجديدة في هذا العالم الذي اصبح بفعل الانترنيت وتفاصيل الحواسيب اكثر قرباً واكثر زحمة واكثر وضوحاً على التجارب الجديدة من دون ان يخل ذلك بالشخصية (الوطنية) والمحلية الخاصة، بمعنى ان عراقية الشخوص والرواية سمة اساسية لاعطائها بنيتها وشكلها المحلي وذلك مايجعلها تكون عالمية انطلاقا من محليتها.

ان ذلك يتطلب كلاماً، اكثر وضوحاً واكثر تفصيلاً ولكنني اسوق ذلك للشباب الكتاب نوعاً من التذكير ونوعاً من التأكيد على حيوية الاطلاع على التجارب الاخرى واستيعابها لصنع الشخصية الادائية الخاصة للمبدع الشاب.

ان الحدث الابداعي مبثوث في شارع المجتمع ، في القرى والدساكر وفي احلام الانسان وقد كتبت الاف القصص ومئات الروايات سعياً وراء رسم الواقع وصولاً الى انسان ومجتمع نموذجين ، كتبت عن العاطفة باشكالها وعن ثلاثي العلاقة وعن الظلم الاجتماعي والسلطوي وعن الجوع والملل والنبل والقسوة.